مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

أوراق علمية
(44)

صفات الأفعال عند أهل السنة والرد على من خالفهم

إعداد
محمد صلاح محمد الإتربي
باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإن الحديث عن صفات الله تعالى حديث عن أحد نقاط الاشتباك بين أهل السنة والجماعة والفرق الأخرى، فقد كان موقف الفرق من هذه القضية متباينًا ومتأرجحًا بين الإفراط والتفريط؛ كما هي عادة من خالف الكتاب والسنَّة، فقد كثر النزاع في هذه القضية، وكثر المنحرفون عن منهج أهل السنة فيها، وإحدى هذه القضايا المتعلقة بالصفات: قضية إثبات صفات الأفعال لله تعالى، ونحن في هذه الورقة العلمية نقرِّر مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الأفعال، ونبين مقالة المخالفين لمنهج السلف والرد عليهم وآثار قولهم، وذلك باختصار بإذن الله تعالى وحوله وقوته.

❁ بيان المراد بصفات الأفعال:

صفات الله تعالى عند أهل السنة من السلف تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: صفات الذات، والنوع الثاني: صفات الأفعال.

فصفات الذات: هي الصفات القائمة بذات الله التي لم يزل ولا يزال متصفا بها، وهذه الصفات لا تتعلَّق بالمشيئة، مثل صفة الحياة، وصفة العلم، وصفة القدرة، فلا يقال: إن الله حي متى شاء، أو إنه عليم متى شاء.

وصفات الأفعال: هي الصفات التي ليست لازمة لذاته، لا باعتبار نوعها ولا باعتبار آحادها، وهذه الصفات تتعلق بالمشيئة، مثل ما ثبت من أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، وأنه يغضب يوم القيامة غضبًا لم يغضب مثله قط، وأنه سبحانه يأتي يوم القيامة والملك صفًّا صفًّا، وهكذا مما وردت به الأدلة من الكتاب والسنة.

وقد تكون الصفة ذاتية باعتبار، فعلية باعتبار، فتسمى ذاتية فعلية.

فالصفات الذاتية الفعلية: هي الصفات التي لم يزل ولا يزال سبحانه متصفًا بها باعتبار نوعها فقط، وأما باعتبار آحادها فهي متعلقة بالمشيئة، وذلك مثل صفة الكلام، فهي قديمة النوع، فهو سبحانه تعالى لم يزل متكلمًا، وحادثة الآحاد، ومعنى حدثان الآحاد أنها تكون موجودة بعد أن لم تكن –وليس معناه أنها مخلوقة– وهذا هو معنى تعلقها بالإرادة والمشيئة، فهو يتكلم سبحانه متى شاء.

وكذلك صفة الخلق، فهي باعتبار النوع صفة ذات، فلم يزل ولا يزال سبحانه وتعالى خالقًا، وباعتبار الآحاد فهو سبحانه يخلق متى شاء[(١)].

❁ تحقيق مذهب أهل السنة:

الذي قدمناه من إثبات صفات الأفعال لله تعالى هو مذهب أهل السنة، فمذهب أهل السنة في كل الصفات هو التسليم لله تعالى بكل ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[(٢)].

ومعنى هذا أن أهل السنة يثبتون لله تعالى صفات الأفعال، وهي عندهم متعلقة بالمشيئة، فيرحم متى شاء، ويعذّب متى شاء، ويغضب متى شاء، ويضحك متى شاء، ويتكلم متى شاء، فيثبتون كل ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهم لا يؤوّلون هذه الصفات، ولا يقولون: إنها حدثت بعد أن لم تكن، فهي عندهم قديمة النوع حادثة الآحاد، فالله تعالى استحق اسم الخالق قبل خلق الخلق، وهو قادر على الخلق متى شاء، وحدثان الآحاد لا يعني كونها مخلوقة، إنما يعني كونها موجودة بعد أن كانت غير موجودة، وهو معنى تعلقها بالمشيئة، ولم يزل سبحانه متكلمًا من الأزل، وهو يتكلم متى شاء، فكلم موسى تكليمًا، ويخاطب عباده المؤمنين يوم القيامة

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن عثيمين (ص: ٦٠-٦٢)، شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبد الرحمن البراك (ص: ٥٦).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية، بمجموع الفتاوى (٣/ ١٦٢).

ليس بينهم وبينه حجاب، وفي كل هذا نكل معرفة كيفية الصفة إلى الله تعالى.

هذا الذي ذكرناه هو مذهب السلف، لا يعلم عنهم في ذلك اختلاف بفضل الله تعالى، وقد تواترت أقوال العلماء في إثبات هذه الصفات.

❁ بعض الصفات الفعلية التي وردت في الكتاب والسنة:

صفة النزول:

وهي الواردة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[(١)].

صفة المجيء:

وهي الصفة الواردة في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢].

صفة الكلام:

لم يزل سبحانه ولا يزال متكلمًا متى شاء، قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤]، وقال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه**»[(٢)].

صفة الضحك:

وردت هذه الصفة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة**»، قالوا: كيف يا رسول الله؟! قال: «**يقتل هذا فيلج الجنة، ثم يتوب الله على الآخر فيهديه إلى الإسلام، ثم يجاهد في سبيل فيستشهد**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صفة الفرح:

وردت في قوله صلى الله عليه وسلم: «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده**»[(١)].

صفة الغضب:

وردت في قوله تعالى: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: ٦]، ووردت كذلك في حديث الشفاعة الطويل وفيه قول الأنبياء: «**إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»[(٢)].

❁ أقوال السلف في إثبات هذه الصفات:

الحديث عن الصفات الفعلية تجلَّى عند السلف بشكل قويٍّ وبارز في مسألة إثبات صفة الكلام، وأنه سبحانه يتكلم متى شاء، ومن لوازم هذه المسألة مسألة القرآن وأنه غير مخلوق، وكذلك في إثبات الصفات التي وردت بها الأدلة كالضحك والغضب والرضا وغير ذلك، ونصوص أئمة السلف في إثبات هذه الصفات كثيرة[(٣)]، منها:

ما ذكره ابن بطة عن الإمام أحمد أنه قال: «نعبد الله بصفاته كما وصف به نفسه، قد أجمل الصفة لنفسه، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا نتعدى

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) نقل أقوال المتقدمين في الدلالة على إثبات هذه الصفات مما يطوِّل البحث جدًّا، ويخرج به عند حدّه؛ لأن ذلك لن يكون إلا بذكر أقوال السلف في كل صفة بمفردها، ولذا فسوف نكتفي هنا بقدر يسير يدل على غيره.

ذلك. نؤمن بالقرآن كله، محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه -تعالى ذكره- صفة من صفاته بشناعة[١] شنعت، ولا نُزيل ما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضع كنفه عليه، هذا كله يدل على أن الله سبحانه يرى في الآخرة، والتحديد في هذا بدعة»[٢].

وما ذكره الإمام أبو بكر الآجري في كتابه الشريعة في (باب الإيمان بأن الله عز وجل يضحك) حيث قال: «اعلموا أن أهل الحق يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه عز وجل، وبما وصف به رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما وصفه به الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع، ولا يقال فيه: كيف؟ بل التسليم له والإيمان به أن الله عز وجل يضحك كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن صحابته رضي الله عنهم، ولا ينكر هذا إلا من لا يحمد حاله عند أهل الحق»[٣]. ثم ساق الأحاديث الدالة على أن الله تعالى يضحك.

وذكر أيضًا بابًا في (ذكر السنن التي دلت العقلاء على أن الله عز وجل فوق عرشه فوق سبع سماواته، وعلمه محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)[٤]، ثم ساق الأدلة على ذلك.

وذكر بابًا في (التصديق بأن الله عز وجل كلم موسى)[٥].

ثم (باب الإيمان والتصديق بأن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة)، فقال: «الإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يرد هذا إلا المعتزلة[٦]، وأما أهل الحق فيقولون: الإيمان به واجب بلا كيف»[٧].

---

(١) في الأصل: (شناعة) بحذف الباب.

(٢) الإبانة لابن بطة، الكتاب الثالث (٣/ ٣٢٦).

(٣) الشريعة (ص: ٢٦٨).

(٤) الشريعة (ص: ٢٧٩).

(٥) الشريعة (ص: ٢٨٧).

(٦) الأشاعرة في زمن الآجري كانوا يقولون بالعلو، ولم يكن قد ظهر فيهم القول بتأويل العلو، انظر: (إثبات صفة العلو والجواب على الشبهات الواردة عليها)، وهي ورقة علمية من إصدار مركز سلف.

(٧) الشريعة (ص: ٢٩٤).

ومنها أيضًا ما قاله الطحاوي: «ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفاته، وكما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها أبديًّا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحياهم استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم»[(١)].

ومنها ما قاله الدارمي: «والله -تعالى وتقدس اسمه- كل أسمائه سواء، لم يزل كذلك، ولا يزال لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن كذلك، كان خالقًا قبل المخلوقين، ورازقًا قبل المرزوقين، وعالِمًا قبل المعلومين، وسميعًا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين، وبصيرًا قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة»[(٢)].

وقال ابن عبد البر : «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها»[(٣)].

قال ابن تيمية: «وصفه تعالى بالصفات الفعلية مثل الخالق والرازق والباعث والوارث والمحيي والمميت: قديم عند أصحابنا وعامة أهل السنة من المالكية والشافعية والصوفية، ذكره محمد بن إسحاق الكلاباذي، حتى الحنفية والسالمية والكرامية، والخلاف فيه مع المعتزلة والأشعرية»[(٤)].

وقال ابن القيم: «قد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانًا، ولكن -بحمد الله- لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلًا، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلًا، ولم يبدوا لشيء منها إبطالًا، ولا ضربوا لها أمثالًا، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم: يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا، وأجروها على سَنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عِضين، وأقروا ببعضها

---

(١) متن العقيدة الطحاوية، الفقرات (١٦-١٣).

(٢) رد الدارمي على بشر المريسي (ص: ٩).

(٣) التمهيد (٧/ ١٤٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٨٦).

وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه»[(١)].

❁ مقالة المخالفين لمذهب السلف

المعتزلة والأشاعرة يعطلون صفات الله تعالى على اختلاف بينهم في درجة التعطيل، وتعطيل صفات الله اقتضى منهم نفي الصفات الفعلية، وكلاهما دليلهما واحد وهو: أن الأفعال حادثة فلا تقوم بذات الباري؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث.

وكلاهما أيضًا يُرجع الصفات المنفية إلى الصفات التي أثبتها بالتأويل، لكن الفرق بينهما في الصفات التي أثبتوها، وفيما يلي بيان ذلك، ثم بيان الدليل الذي استدلوا به، والجواب عنه:

مقالة المعتزلة:

المعتزلة ينفون صفات الله تعالى، فهم لا يثبتون سوى أن للعالم محدثًا قديمًا قادرٌ عالِمًا حيًّا لا لمعانٍ[(٢)]، فهم لا يثبتون سوى العلم والقدرة فقط، مع أنهم يثبتون الأسماء، وذلك لأنهم يرون أن إثبات الصفات فرع على إثبات أن الله جسم، وهم ينفون أن يكون الله جسمًا أو عرضًا[(٣)]، فإذا كانوا ينفون الصفات الذاتية فهم من باب أولى ينفون صفات الأفعال كلها بلا استثناء، ويقولون: إن الأفعال كلها حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بحادث، فإثبات تعلق الحوادث بالله تعالى يستلزم عندهم وصف الله تعالى بأنه حادث، ولذا يمنعون اتصافه بهذه الصفات[(٤)].

مقالة الأشاعرة:

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٩١).

(٢) انظر: باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل لابن المرتضى المعتزلي [مطبوع بمفرده] (ص: ٦).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص: ٢١٦، ٢٣٠).

(٤) حقيقة مذهب المعتزلة هو مذهب الجهمية الأوائل أتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان الذين ينفون عن الله الأسماء والصفات، ويصرحون برد الكتاب والسنة، ولذا فقد كفرهم السلف، أما المعتزلة فأثبتوا الأسماء ونفوا الصفات وتأولوا الآيات والأحاديث؛ ولذا لم يكفروا بمقالتهم تلك. انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة (ص: ٨٤)، منة الرحمن (ص: ٣٤).

الأشاعرة يقسمون الصفات إلى صفة نفسية، وصفات سلبية، وصفات المعاني:

فالصفة النفسية هي صفة الوجود.

والصفات السلبية هي: القِدم، والبقاء، ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانية.

وصفات المعاني هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر.

وبعضهم يزيد الصفات المعنوية وهي: كونه قادرًا مريدًا عالِمًا حيًّا متكلّمًا سميعًا بصيرًا.

هذه هي الصفات التي يثبتها الأشاعرة ولا يثبتون غيرها، وما سواها يؤولونه بأنه أثر أحد هذه الصفات، وهم في إثبات هذه الصفات يثبتونها على وجه هو في حقيقته تعطيل، فهم يقولون: إن الصفات أزلية وينفون أن يكون لها آحاد متجددة، فصفة الكلام عندهم هي مجرد الكلام النفسي القديم فقط[(١)]، فهو في حقيقته إثبات للفظ الصفة لكنه تعطيل لحقيقتها.

والخلق والرزق هي أفعال باعتبار الأثر لا باعتبار الحقيقة، أما حقيقتها فهي إرادة وجود الفعل بعد عدم، والرضا هو إرادة الثواب، والغضب هو إرادة العقاب، والضحك هو إرادة الرضا، وهكذا[(٢)].

فالأشاعرة يؤوّلون الصفات الفعلية، والسبب في ذلك أنهم يرون أن الأفعال حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، فنسبة الأفعال إلى الله يلزم منها عندهم أنه حادث، ولذلك نفوها عن الله تعالى[(٣)].

أما صفة الكلام –وهي الصفة الفعلية الوحيدة التي أثبتوها– فقد أثبتوا قدم النوع فقط، لكنهم لم يثبتوا أن الله يتكلم متى شاء، فلم يثبتوا آحاد الصفة، بل جعلوا الكلام القائم به تعالى معنى واحدًا نفسيًّا فرارًا من إثبات صفات الأفعال لله تعالى.

(١) انظر: غاية المرام للآمدي (ص: ٨٨).

(٢) انظر: غاية المرام للآمدي (ص: ٦٨)، إبكار الأفكار للآمدي (١/ ٤٧١، ٢/ ٢٣٢، ٥٠٤)، درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٩/ ٢٥٢).

(٣) انظر: الشامل للجويني (ص: ٥٢٩).

❁ شبهاتهم والجواب عنها

المعتزلة والأشاعرة يبنون مقالتهم تلك على أن الأفعال حادثة، وكونها حادثة يمنع من قيامها بذات الله تعالى؛ لأن كل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

وذلك عندهم لأمور:

الأول: أن وصف الله بفعل حادث يستلزم أنه لم يكن متصفًا بالفعل قبل حدوثه، فحدوث الفعل عندهم ملازم للوصف بعدم إمكانه قبل فعله.

فأما المعتزلة فطردوا هذا وقالوا: الأفعال حادثة فلا تقوم به، فنفوا الكلام والأفعال، وجعلوا كلام الله وأفعاله مخلوقة.

وأما الأشاعرة فأثبتوا الكلام فرارًا من مصادمة صريح القرآن، لكنهم نفوا أن يكون من الله فعل التكلم متى شاء، فجعلوا الكلام قديمًا، ولأن الفعل عندهم لا يوصف بالقدم أثبتوا الكلام النفسي على معنى أنه وصف قائم بالذات فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان هذه الشبهة عند الجهمية ومن يقول بقولهم (ومنهم المعتزلة): «والمقصود هنا أن الذين أثبتوا حدوث العالم بحدوث الجسم كما تقدم قالوا: فإذا كان الدليل على حدوث المحدثات إنما هو قيام الصفات والأفعال بها فكل ما قامت به فهو حادث، وإلا انتقض الدليل على حدوث العالم وإثبات الصانع. قالوا: فيجب أن يكون كلامه حادثًا بعد أن لم يكن، ويصير متكلِّما بعد أن لم يكن، كما أنه صار فاعلًا بعد أن لم يكن فاعلًا وفعله حادث.

قالوا: وكل ما قامت به الحوادث فهو حادث كما تقدم، فيلزم أن لا يقوم به كلام ولا فعل ولا صفة، فقالوا: كلامه مخلوق في غيره، ولا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات؛ لأنه لو قام به ذلك لكان عرضًا قائمًا بالجسم، والجسم محدث. قالوا: وليس هو فوق العالم ولا مباين للعالم ولا يصعد إليه شيء ولا ينزل من عنده شيء ولا يرى؛ لأنه لو كان كذلك لكان جسمًا والجسم محدث»[1].

وقال عن الأشاعرة بعدما ذكر الدليل السابق وأنه يلزم منه القول بخلق القرآن: «قالوا: الكلام

---

(١) الصفدية لابن تيمية (٢/ ٥٣).

كالحياة لا يتعلق بمشيئته وقدرته واختياره، فلا يقال: إنه يقدر على الكلام، ولا إنه يتكلم بمشيئته واختياره وقدرته، وأنكر هؤلاء وجود أفعال تقوم به شيئًا بعد شيء، وقالوا: هذا هو الدليل الذي احتججنا به على حدوث العالم وأجسامه، وهو: كونه لا يخلو من الحوادث، فإنه إذا قامت به الحوادث لم يخل منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث»[(١)].

الثاني: أن إثبات قيام الأفعال بذات الله يلزم منه إثبات حوادث لا أول لها، وهذا يلزم منه تعدد القدماء، ولذا قالوا بامتناع حوادث لا أول لها.

الثالث: أن هذا لازم نفي التشبيه؛ إذ إثباتها في زعمهم يلزم منه مشابهة الله لمخلوقاته.

والجواب عن هذه الأمور فيما يلي:

أولًا: أنا ننكر أن معنى أن أفعال الله حادثة أنها مخلوقة، بل معناها أنها متجددة أي: متعلقة بالمشيئة، فهو سبحانه يفعل ما يشاء، وأثر فعل الله في العباد هو الذي يوصف بأنه مخلوق، فخلق الله للعبد معناه وجود فاعل وفعل ومفعول، فالفاعل هو الله تعالى، والفعل هو الخلق منه سبحانه متى شاء وهو غير مخلوق، والمفعول هو العبد المخلوق.

أما الأشاعرة والمعتزلة فيخالفون هذا، فيجعلون الفعل هو المفعول، أو أنها مجرد نسبة وإضافة فقط[(٢)].

ثانيًا: القول بأن الله منزه عن حلول الحوادث لفظ مجمل:

فإن كان المراد بأنه منزه عن أن يحل فيه شيء من مخلوقاته فهذا المعنى صحيح.

وإن كان المراد نفي كونه فعالًا لما يريد فهذا المعنى باطل، دل الدليل على خلافه، ولا يلزم من إثبات تجدد أفعاله أن تكون مخلوقة، فإن الفعل غير المفعول[(٣)].

ثالثًا: أنه لا تلازم بين كون الفعل محدثًا وبين عدم إمكانه قبل فعله، فقد لا يكون الفعل موجودًا، ويكون الفاعل قادرًا على إيقاعه متى أراد، فليس هذا ممتنعًا في العقل ولا في الشرع.

---

(١) الصفدية (٢/ ٥٥).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: شرح الطحاوية للبراك (ص: ٥٨).

رابعًا: أن القول بامتناع حوادث لا أوَّل لها يناقض قولهم: إن الله قادر على إحداث الحوادث، إذ معنى قدرته على إحداث الحوادث يقتضي جواز دوام إحداثه الحوادث، وليس هناك فرق بين إثبات هذا الجواز في الماضي وبين إثباته في المستقبل، فالقول بإمكانه في المستقبل دليل على إمكانه في الماضي.

ولا يلزم من القول بجواز حوادث لا أول لها أن يوصف غير الله بالقدم، وذلك لأن المراد أن الله في الأزل قادرٌ على أن يخلق ما يشاء، كما هو قادر في المستقبل على أن يفعل ما يشاء، فلم يكن سبحانه وتعالى معطلًا في الماضي عن فعل من الأفعال.

فالمراد هو إمكان التسلسل، ومعنى الإمكان هو الدخول تحت القدرة، وما كان ممكنًا لم يكن واجبًا، بل كان جائز الوقوع وعدمه[1].

ولا يعارض هذا ما ورد من النصوص الدالة على تعيين أولٍ للمخلوقات؛ إذ إن غاية هذه النصوص أنها كاشفة عن وقتٍ شاء فيه الله تعالى وجود هذه المخلوقات، ولم يكن معطلًا قبله عن الفعل، فإنه حينئذ فاعل بالقوة كما أن المتكلم من البشر حين يسكت لا يقال عنه: أخرس؛ لأنه متكلم بالقوة في هذا الوقت، فإذا تكلم يقال عنه: متكلم بالفعل، فكذلك الرب تبارك وتعالى – ولله المثل الأعلى– عندما يفعل الفعل فإنه فاعل بالفعل، فإذا امتنع عن الفعل فلإرادته ومشيئته لا لضعفٍ ولا لعجزٍ، وهو فاعلٌ بالقوة حينئذٍ، وفعله لم يزل ولا يزال موجودًا، وهو من كمال ذاته، فلم يكن مُعطَّلًا عنه في وقت من الأوقات، ولن يكون، بل هو دائم الفعل أبدًا وأزلًا.

خامسًا: القول بامتناع تسلسل الحوادث في الماضي يلزم منه أنه لم يكن قادرًا على الفعل ثم قدر عليه، وهذا يقتضي أنه كان ناقصًا عن صفة القدرة التي هي من لوازم ذاته، والتي هي من أظهر صفات الكمال[2].

سادسًا: لا يلزم من إثبات ما وصف الله به نفسه أن يكون مشابهًا لمخلوقاته، والاشتراك في

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١/ ١٧٦)، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ١٢٨-١٣١)، الانتصار لابن تيمية فيما رمي به من التهم الردية (ص: ٢١١-٢٣٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ٢٣٧).

الأوصاف لا يقتضي الاشتراك في الذات، فلا يلزم من الاشتراك في وصف الله بصفة الكلام ووصف المخلوق بصفة الكلام أن يكون ذلك تشبيهًا لله بخلقه، ثم إن هذا الدليل يلزمهم فيما أثبتوه من الصفات، فما من صفة إلا يقال فيها هذا، فإن قالوا: أثبتناها على وجه يليق بذات الله، قلنا: وهذه أيضًا نثبتها على وجه يليق بذات الله، وهذا الاستدلال لا مخرج لهم منه[١].

سابعًا: مما ينبغي الإشارة إليه هنا أن الخلل في مقالة المتكلمين إنما دخلهم من أنهم طلبوا تعريف الأفعال أولًا وفسروها بما هو موافق لكيفية حصولها في المخلوقات، ثم ظنوا أن هذه هي المعاني المتبادرة من إطلاقها، ثم رأوا في إثبات هذه الكيفيات في حق الله تعالى نقصًا لا يجوز عليه، وتمثيلًا له بمخلوقاته، فراموا نفيها، ولو أنهم أثبتوها على ما تقتضيه اللغة دون بحث في كيفيتها لما ذهبوا إلى هذا الذي ذهبوا إليه[٢].

❁ أثر هذه المسألة:

كان للقول بتعطيل صفات الأفعال وتأويلها أسوأ الأثر في مقالات المخالفين لأهل السنة، فقد أداهم هذا القول إلى القول بمسائل شكلت مثارًا كبيرًا للخلاف بين أهل السنة ومخالفيهم من الأشاعرة والمعتزلة، وفيما يلي الإشارة إلى أهم هذه المسائل التي ترتبت على هذا القول:

١- قول المعتزلة بخلق القرآن:

قالت المعتزلة بخلق القرآن بناء على قولها في الكلام بأنه حادث[٣]، وامتحن الناس والعلماء به في زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، إلى أن رفع الله الغمة عن هذه الأمة بثبات الإمام أحمد في

---

(١) ذكر الآمدي في غاية المرام (ص: ١١٢) مثل هذا الدليل، وأقر بأنه ليس بمستبعد عقلًا، ومع ذلك فقد رده بأنه لا دليل يقطع بذلك! وانظر: رد الدارمي على بشر المريسي (ص: ٢٢).

(٢) هذا الأمر واضح في كتبهم فيما يتعلق بالعديد من المسائل التي تكلموا فيها كالرؤية مثلًا، وانظر على سبيل المثال: المغني للقاضي عبد الجبار (٦/ ٧)، غاية المرام للآمدي (١١٢-١١٠).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص: ٥٢٨).

هذه المحنة[١].

٢- قول الأشاعرة بالكلام النفسي:

عرف الأشاعرة بمسألة الكلام النفسي، ومعناه عندهم أنه قديم، وأنه معنى قائم بالذات، وهذه المسألة كان لها أثر كبير في المسائل الأصولية؛ إذ تحول علم أصول الفقه إلى ساحة خلفية لتصفية النزاعات العقدية بين الأشاعرة والمعتزلة، وكانت مسائل الأمر والنهي هي المجال الأوسع لظهور هذه النزاعات، مثل مسألة الأمر هل يتعلق بالمعدوم أم لا، ومسألة الأمر بالشيء نهي عن ضده، وحقيقة النسخ وغير ذلك[٢].

٣- قول المعتزلة بخلق العباد لأفعالهم:

ذهبت المعتزلة إلى أن العباد هم خالقون لأفعالهم، وأنهم هم المحدثون لها، ونفوا نسبة خلق الأفعال إلى الله تعالى[٣].

قال البخاري: «واختلف الناس في الفاعل والمفعول والفعل، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله، وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله، وقالت الجهمية: الفعل والمفعول واحد؛ لذلك قالوا: لكن مخلوق، وقال أهل العلم: التخليق فعل الله، وأفاعيلنا مخلوقة لقوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [الملك: ١٣]، يعني السر والجهر من القول، ففعل الله صفة الله، والمفعول غيره من الخلق»[٤].

---

(١) خبر المحنة طويل مشهور، انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ١٦٨).

(٢) انظر على سبيل المثال: البرهان للجويني (١/ ٢٥١)، المستصفى للغزالي (١/ ٢٧٠).

(٣) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل (٨/ ٣)، شرح الأصول الخمسة (ص: ٣٢٣).

(٤) خلق أفعال العباد (ص: ١١٣).